من أعلام الدرس الصوتي في القرن الخامس الهجري
[عبد الوهاب بن محمد القرطبي]
٤٠٣- ٤٦٢ هـ

حقي عبد الرزاق الصالحي

توطئة:

عاش القرطبي في عصر-عرف عند المؤرخين بعصر الطوائف أو دول الطوائف- اتسم بالاضطراب السياسي، وكثرة الفتن، انقسمت فيه البلاد الى دويلات صغيرة، واستقل كل أمير في بلده، منفصلاً عن مركز الخلافة في قرطبة .

أما الدويلة التي عاصرها، ونشأ بين جنباتها، فهي دويلة (بني جهور) نسبة الى الوزير أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور(ت٤٣٥هـ) الذي تولى أمر قرطبة بعد وفاة الخليفة الأموي هشام بن محمد الملقب بـ(المعتمد بالله) سنة٤٢٧هـ.

وقد استمر حكم هذه الدويلة حتى سنة ٤٦٣هـ، حين استولى المعتمد بن عباد(ت٤٨٨هـ) صاحب أشبيلية على قرطبة معلنا قيام إمارة بني عباد[١].

إن " انقسام الدولة في عهد ملوك الطوائف جعل الأمراء يتنافسون على تزيين إماراتهم بالعلم والأدب، كالذي حدث في المشرق عند انقسام الدولة العباسية بين طولونية، وفاطمية ، وحمدانية"[٢].

أضف الى ذلك عوامل اخرى ، أسهب الباحثون في تبيانها[٣]، جعلت الأندلس "روضة العلم والأدب، فلم يضعف العلم بضعف السياسة ولم يأفل نجم العلماء، كما أفل نجم السياسيين"[٤].

لقد حظي هذا العصر بجلّة من أكابر العلماء والأدباء والمؤرخين، وفي مقدمة هؤلاء، في سبيل المثال لا الحصر:

أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي(ت٤٢٧هـ) صاحب التآليف الكثيرة، وكان "لكتابيه التبصرة والكشف أثر كبير في من ألف بعده في القراءات"[٥].

ولا يقل عنه شهرة معاصره أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني(٤٤٤هـ)[٦]، الذي بلغ الغاية في القراءات، "ووقفت عليه معرفتها، وانتهت الى روايته أسانيدها، وتعددت تآليفه فيها، وعوّل الناس عليها، وعدلوا عن غيرها"[٧].

وابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد(٤٥٦هـ) صاحب (المحلى) في الفقه و(طوق الحمامة في الألفة والألاف) وغيرها من المؤلفات في الشريعة والأخلاق.[٨]

ومنهم أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر النمري(٤٦٣هـ) "شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها في وقته ، وأحفظ من كان فيها"[٩].

والشاعر المشهور ابن زيدون أبو الوليد أحمد بن عبد الله(٤٦٣هـ) وزير بني جهور ، وأكثر الشعراء الأندلسيين شهرة في بلاد المشرق العربي[١٠] .

ومدار بحثنا الأستاذ، المتقن، الحافظ المجوّد، مقرئ أهل قرطبة

عبد الوهاب القرطبي .

إسمه ونسبه:

هو عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب ابن عبد القدوس الأنصاري، يكنى بأبي القاسم، ويلقب بالقرطبي [١١] .

انفرد المراكشي(٧٠٣هـ) بتقديم (عبد القدوس) على (عبد الوهاب)[١٢] ولعل ذلك بسبب من سبق القلم، لأن ابن بشكوال(٥٧٨) قال، بعد أن أورد نسبه المذكور آنفاً: "كذا قرأت نسبه بخطه"[١٣] .

الولادة والنشأة:

ولد القرطبي سنة(٤٠٣هـ) بلا خلاف، أما أين ولد ، وكيف نشأ ، وأسرته، ومركزها الاجتماعي والثقافي ، فلم تذكر المصادر التي ترجمت له- وهي أقل من أصابع اليد الواحدة- شيئاً عنها.

وأحجمت عن ذكره كتب التراجم والطبقات المشهورة ولم أقف على ترجمة شافية له مع تنقيري الطويل، وكل ما كتب عنه في المصادر القديمة لايتجاوز صفحة واحدة برغم أنه كان من "جلة المقرئين، وكانت الرحلة إليه في وقته"[١٤] .

وهذا الواقع،أخذ من وقت الباحث وجهده الكثير- بلا طائل- أملا في العثور عما يفيد في دراسة شخصية القرطبي ويكشف عما خفي من جوانب حياته.

والظاهر، أنه ينحدر من عائلة مغمورة، لم يبرز أحد من أبنائها يلفت أنظار العلماء والمصنفين في ميادين العلم والمعرفة .

وكل ما ورد عنه: أن أصله من (أشونه)[١٥] - بضم الهمزة والشين- حصن بالأندلس ، من نواحي (إسْتجه) - بكسر الهمزة وسكون السين- وهي كورة بينها وبين قرطبة فراسخ معدودة، ثم سكن قرطبة، واستقر فيها الى مماته[١٦] . وأن له صهراً، تتلمذ علي يديه، هو خلف بن ابراهيم(ت٥١١هـ) المعروف بابن الحصار، وعنه، عرفنا أغلب شيوخ القرطبي وتلامذته[١٧]، وأن له رحلة الى بلاد المشرق.

الرحلة الى بلاد المشرق :

يبدو القرطبي من أصحاب الهمم العالية، والعزائم القوية، محباً للعلم والعلماء فما أن بلغ من العمر ما يقوى به على السفر، وتحمل المشاق، وركوب الأخطار حتى اتجه نظره صوب المشرق، مهبط الوحي، ومنبع الرسالات. يشجعه على ذلك ازدهار الحياة الثقافية والفكرية، وما كان يتمتع به العلماء في وقته من حظوة وتكريم.

وكانت الرحلة الى بلاد المشرق زمن القرطبي حلما يراود طلاب العلم من الأندلسيين لأنّ "العائدَ منهم الى وطنه يشرف في نظر قومه لأنه غدا يروي عن الشيوخ، وغدت الرحلة العلمية (فريضة ثقافية) يؤدونها بالرغم من أعباء السفر[١٨].

قال ابن خلدون(٨٠٨هـ): فالرحلة لابد منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال"[١٩].

فضلا عن هدف الحج الرئيس للأندلسيين في رحلاتهم الى المشرق، فالحج كان وما يزال رحلة يتشوق الى أدائها كل من عمر قلبه بالإيمان.

وقد أفرد المقري(١٠٤١هـ) الباب الخامس من كتابه(نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين الى بلاد المشرق، ضم ثلاث مئة وتسع ترجمات، ولو أطلق عنان الأقلام فيمن عرفهم من هؤلاء الأعلام لطال الكتاب وكثر الكلام[٢٠].

واستأثر الأندلسيون الوافدون على بلاد الشام ببحث علمي في إحدى الجامعات السورية[٢١].

لم تذكر المصادر شيئاً عن رحلة القرطبي الى بلاد المشرق ، متى بدأت المدة التي استغرقتها، بل اكتفت بالإشارة اليها.

كما أن القرطبي لم يترك لنا ما يفصح عنها عدا تلميحه اليها في مقدمة كتابه(المفتاح) [٢٢] .

ومن المرجح أن رحلة القرطبي " بدأت قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، لأن أقدم شيوخه الذين ذكرهم ابن بشكوال وفاة هو أبو

الحسن علي بن إبراهيم الحوفي الذي توفي في مستهل ذي الحجة سنة ٤٣٠هـ، فإذا صح سماعه من (علي الحوفي) فلا بد أن يكون قد وصل مصر سنة ٤٣٠هـ أو قبل ذلك، ومن الثابت الأكيد الذي أجمعت عليه المصادر سماعه من الشريف أبي القاسم علي بن محمد الزيدي بحران الذي توفي سنة ٤٣٣هـ" [٢٣].

زهي رحلة على ما يبدو لم تكن قصيرة، أدى خلالها فريضة الحج وزار دمشق ومصر وحران وميّافارقين(مدينة ديار بكر)، التقى فيها بأبرز علمائها، سمع منهم، وقرأ عليهم.

عودته إلى قرطبة:

بعد أن نهل القرطبي من علوم عصره، وغدا قادراً على الرواية عن شيوخه عاد الى الأندلس ليستقر في قرطبة إماماً وخطيباً بمسجدها الجامع[٢٤]. وعالماً مبرزًا في علم القراءات والتجويد، فقد كان رحمه الله "عجباً في تحرير القراءات وفنونها"[٢٥]. منصرفا في تمضية ما بقي من عمره بين حلقات الدرس، والتأليف

وفاته:

في شهر ذي القعدة، لليلتين خلتا منه، سنة اثنتين وستين وأربع مئة فاضت روحه الشريفة الى بارئها، ودفن بمقبرة ابن عباس في قرطبة[٢٦] جندياً مجهولاً في محراب القراءات والتجويد من غير أن يفطن لموته أحد.

هذا ما نص عليه ابن بشكوال في صلته وهو أقدم من ترجم له وعليه نعوّل.

وأهمل المراكشي(٧٠٣هـ) والذهبي(٧٤٨هـ)سنة الوفاة[٢٧].

أما ابن الجزري(٨٣٣هـ) فقد نص على أن القرطبي "مات في ذي القعدة سنة ٤٦١هـ" من غير تعليق[٢٨].

ومن الواضح أنها زلة لم يتنبه لها، وعنه نقلت بعض المصادر من غير تدقيق[٢٩].

شيوخه وتلامذته[٣٠]:

لم يذكر القرطبي أحداً من شيوخه وتلامذته وقد ذكر الأهوازي، وأبا علي البغدادي.

ذكر الأهوازي ثلاث مرات في كتابه(الموضح في التجويد)[٣١] وذكر البغدادي مرة واحدة في كتابه(المفتاح)[٣٢].

شيوخ القرطبي:

١. أبو الحسن علي بن إبراهيم الحَوْفي(ت ٤٣٠هـ)[٣٣].

٢. أبو القاسم الزيدي(علي بن محمد بن علي الحسيني الزيدي(ت٤٣٣هـ)[٣٤].

٣. أبو الحسن بن السمسار (علي بن موسى الدمشقي ت٤٣٣هـ)[٣٥].

٤. أبو علي البغدادي(الحسن بن محمد بن ابراهيم ت٤٣٨هـ)[٣٦].

٥. ابن الحسن القنطري(أحمد بن محمد ت٤٣٨هـ)[٣٧].

٦. أبو عبد الله الكارزيني(محمد بن الحسين بن آذربهرام ٤٤٠هـ)[٣٨].

٧. أبو علي الأهوازي (الحسن بن علي بن ابراهيم ت٤٤٦هـ)[٣٩]

٨. ابن نَفيس المصري (أحمد بن سعيد بن احمد ت٤٥٣)[٤٠].

تلامذته:

١. أبو علي القرطبي، الحسين بن عبيد الله الحضرمي(ت٤٨٦)[٤١].

٢. ابن البياز، يحيى بن ابراهيم بن أبي زيد(ت٤٩٦هـ)[٤٢].

٣. ابو جعفر هابيل بن محمد الألبيري(ت٥٠٩هـ)[٤٣].

٤. خلف بن ابراهيم المعروف بابن الحصار(ت٥١١هـ)[٤٤].

٥. أبو الحسن، علي بن أحمد بن كرز الأنصاري(ت٥١١هـ)[٤٥].

٦. أبو الوليد احمد بن عبد الله بن طريف(ت٥٢٠هـ)[٤٦]

مؤلفاته:

١. المفيد في القراءات:(مفقود)، ذكره القرطبي في كتابه(المفتاح) في أكثر من موضع[٤٧]. ولم أقف على ما يشير إليه في كتاب آخر.

٢. الوجيز في القراءات (مفقود) : ذكره القرطبي في كتابه (المفتاح) في أكثر من موضع[٤٨]. وذكره ابن الباذش(٥٤٠هـ) في كتابه (الإقناع في القراءات السبع): باب الهمزة المتطرفة وهو ينقل منه رأيا للقرطبي جاء فيه: " قال عبد الوهاب في كتاب(الوجيز) : "جميع

من ترك الهمزة الساكنة فإنه يبدل منها إذا انفتح ما قبلها ألفاً، وإذا انضم واواً، وإذا انكسر ياءً"[٤٩].

٣. المفتاح في اختلاف القراءة السبعة المسّمين بالمشهورين (مخطوط).

هذا عنوان الكتاب كما ورد على غلاف المخطوطة التي تحتفظ بها دار الكتب المصرية برقم(١٩٦٦٩ب)[٥٠].

وفي(فهرس المخطوطات المصورة) ورد بلفظة(القراء) بدلاً من (القراءة)[٥١] وكذا في (معجم الدراسات القرآنية) نقلاً منه[٥٢].

وهو عند البغدادي (المفتاح في القراءات العشر)[٥٣] وعلى هذا مؤلف (معجم مصنفات القرآن الكريم) نقلا منه[٥٤].

وكتاب (المفتاح) أفردته بالذكر أغلب المصادر التي ترجمت للقرطبي، ووصفته مع أنه لم يكن الكتاب الأول في قائمة التأليف وقد أراده مؤلفه أن يكون مختصراً ومفتاحا لطلابه لحفظ كتاب (الوجيز) وغيره من كتب القرطبي.

جاء في مقدمة الكتاب :" سألتم وفقنا الله وإياكم لطاعته، وجنبنا وإياكم معاصيه أن أملي عليكم كتاباً مختصراً في ما اختلف فيه القراء السبعة المسمون بالمشهورين دون غيرهم من الأئمة القراء الذين قرأت بقراءاتهم في تجولي بديار المشرق ذكرت بعضها في كتاب(الوجيز) وأن ألخص لكم أبوابه، وأقرب عليكم فصوله ، وأسهل عباراته ليكون(مفتاحاً) لكم لحفظ كتاب الوجيز وغيره من كتبي"[٥٥].

قال القاضي عياض: "لقيت بقرطبة أبا الوليد أحمد بن عبد الله (أحد تلاميذ القرطبي) أخبرني بكتاب (المفتاح في القراءات تأليف ابن عبد الوهاب وأجازني جميع روايته"[٥٦].

٤. الموضح في التجويد[٥٧] : انفرد بذكره عرضا ابن الجزري وهو يترجم لأبي علي الأهوازي[٥٨].

ويرى الباحث أن هذا الكتاب من أواخر ما ألف القرطبي إن لم يكن آخرها، فلم يرد له ذكر في كتابه (المفتاح)، كما ظهر فيه القرطبي عالماً متمكناً من أداته، عميقاً في تفكيره الصوتي، متميزا في طريقة عرضه، وصياغة أسلوبه، وهي أمور لاتستقيم للمرء إلاّ بعد طول مراس في البحث والتأليف.

وقد وهم عمر رضا كحالة حين ذكر أن للقرطبي(مفتاح بعض أسرار الكريم الفتاح في علمي الحروف والخواص)[٥٩] وقد أوقعه في هذا الوهم حاجي خليفة في (كشف الظنون)[٦٠] إذ لا نعرف للقرطبي كتاباً بهذا الاسم.

منهجه الصوتي من خلال كتابه[الموضح في التجويد] .

١. مزيّة الصوت وخاصيته:

قال مكي القيسي: "لا تجد أحرفاً من مخرج واحد متفقة الصفات البتة، لأن ذلك يوجب اتفاقها في السمع فلا تفيد فائدة، فتصير كأصوات البهائم التي لا اختلاف في مخارجها، ولا في صفاتها، فلا بد أن تختلف الحروف، إما في المخارج، وإما في الصفات"[٦١].

وقال القسطلاني: "المخارج بمثابة الموازين، والصفات بمثابة الناقد الذي يميز الجيد من الرديء"[٦٢].

من هذا الإدراك السليم، صاغ القرطبي فكرته، كان له الريادة فيها، تسير في خط متواز مع فكرة اللحن الخفي في بناء منهجه، وفي توجيه الكثير من أحكامه. وخلاصتها:

" لكل حرف مزية يجب أن تحفظ له، وخاصية يجب أن يعمل لتوفيرها عليه"[٦٣].

وأرى أن القرطبي قد استأنس إليها، ووجدها تنسجم مع الأداء القرآني" على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية، إلاّ فصيحة العربية، التي لاتجوز مخالفتها، ولا العدول عنها الى غيرها[٦٤] ، فهي معه في كل فصل، وفي كل باب".

في بسيط الحروف يحض القرطبي القارئ على بيان صفة كل حرف، وتوفيته حقها، لأن فيها هويته التي يُعرف بها، ولولاها لضاعت الحدود الحقيقية للصوت المعين، فعلى"القارئ إفراد كل حرف بمزيته، والتعمل لإيراده بخاصيته" .

قال: "إن الصاد امتازت عن السين بالإطباق ، ولولاه لكانت

الصاد سيناً، وكذلك السين امتازت عن الزاي بالهمس ولولاه لكانت زايا"[٦٥].

"ولولا الهمس الذي في التاء والثاء لصارت التاء دالاً، والثاء ذالاً"[٦٦].

وفي باب التشديد(الإدغام) يوجب إشباع الحروف التي لها مزية على غيرها بإطباق أو تفشٍ أو تكرار أو غير ذلك لحفظ المزية لها وتوفيرها عليه.

قال" الشين إذا شددت في مثل قوله تعالى:(فبشّرناه) و(يبشّرون) ينبغي أن تشبع تفشيها من غير إفراط، وذلك لأن التفشي مزيّة لها يجب حفظها عليها"[٦٧].

ويتكئ القرطبي على هذه النظرية، ويجعلها بديلاً عن نظرية(القوة والضعف في الأصوات) التي اعتمدها مكي القيسي في تفسير ظاهرة الإدغام الناقص"[٦٨].

قال: "من أحكام الإدغام أن الحرف إذا كان له فضيلة ومزية على مقاربه امتنع الإدغام"[٦٩].

إن ما يتمتع به الحرف من مزية مصدر قوة له، تمنعه وتحرسه من الاندغام التام، فيبقي منها صوتاً من إطباق أو تكرار أو جهر " لئلا يجحفوا بها ويسلبوها مزيتها"[٧٠].

وفي باب التليين يجعل المد مزية لحرفي الواو والياء إذا كانتا طرفاً لا يجوز إبطالها" فالحرف يمتنع إدغامه إذا كان له مزية على مماثله"[٧١].

وفي باب الإظهار تكون مزية الحرف من موجبات إظهاره، وبيان نطقه"فالضاد إذا سكنت، وكانت بعدها طاء في مثل قوله تعالى(فمن اضطر) فأحسن تخليص الضاد منها بالإظهار ، لأن في الضاد مزية على الطاء بالتفشي والاستطالة، فوجب الإظهار لحفظ مزيتها ودفع الإدغام المخل بها"[٧٢].

وفي حديثه عن الشوائب يعوّل على فكرته في حسن التخلص من دخول شوائب الصفات بعضها في بعض.

قال :"إذا اجتمع حرفان امتاز أحدهما عن الآخر بمزية ما، إما بتفخيم أو إطباق أو تفشٍ فالذي ينبغي أن يعتمده القارئ إفراد كل منهما بمزيته، والتعمل لإيراده بخاصيته" [٧٣].

ونجد القرطبي يسلك النهج نفسه في بيان الحركة والسكون"فالحروف التي لها خاصية كالشين في مثل قوله تعالى(ويشْتَرُونَ) وما أشبه ذلك، بيّن سكونها ليبين ببيانه خاصّيّة تفشّيها"[٧٤].

و" الطاء إذا سكنت ينبغي أن يكون إسكانها ببيان شاف وإنعام، وبسط اللسان بالإطباق في مثل قوله تعالى(يَلْتقِطْهُ) و(من نُطْفَةٍ) لأن الإطباق مزية، ومتى لم يظهر السكون سلب هذه المزية، وصار دالا أو كاد، كذلك حكم سائر حروف الإطباق"[٧٥].

٢. قياس الصوت اللغوي:

قال الدكتور إبراهيم أنيس: " ولطول الصوت أهمية خاصة في النطق باللغة نطقاً صحيحاً، فالإسراع بنطق الصوت أو الإبطاء به، يترك في لهجة المتكلم أثراً أجنبياً عن اللغة ينفر منه أبناؤها"[٧٦].

إن أقدم ما وصل الينا من هذا الإرث المبارك يحمل رؤية ناضجة، تعكس اهتماماً بقياس الصوت، وتحذر من إهماله، وهو أمر يبعث على الاعجاب.

قال الخاقاني(ت٣٢٥هـ) في (القصيدة الخاقانية البيت السادس والعشرين):

زِن الحرفَ لا تُخرجهُ عن حدِّ وَزنه

فوزنُ حُروفِ الذّكرِ منْ أعظمِ البرّ

وقال أبو عمرو الداني (عثمان بن سعيد): "وينبغي لمن أخذ نفسه من القراء بالتحقيق ألا يفرّط في ذلك، وأن يكون جميع ما يلفظ به على وزن ومقدار لايجاوز به الحد الذي علم"[٧٧].

وجاء في رسالة ابن البناء البغدادي (ت٤٧١هـ):"يجب على قارئ القرآن أن يأتي بحروف القرآن في وزن عادل ، وترتيب متماثل"[٧٨].

ومما قاله علم الدين السخاوي(٦٤٣هـ) في قصيدته(عمدة المفيد وعدة المجيد في معرفة لفظ التجويد) :

للحرف ميزان فلا تكُ طاغياً

فيه ولا تك مخسـر الميزان[٧٩]

قال شارحها: "فكل حرف له ميزان يعرف به مقدار حقيقته، وذلك الميزان هو مخرجه وصفته، فإذا خرج من مخرجه، معطىً ماله من الصفات على وجه العدل في ذلك من غير إفراط ولاتفريط[٨٠] فقد وزن بميزانه وهذا هو حقيقة التجويد"[٨١].

وبما أن الإخلال بميزان الحرف إفراطاً أو تفريطاً يمثل مظهراً من مظاهر اللحن الخفي فقد عني القرطبي به عناية لافتة للنظر.

وقد أتاح له منهجه سعة في تناول هذا الموضوع، تابع فيه قياس الحرف والحركة، وكيفية النطق بالحرف الساكن، والممدود، والمشدد، والمليّن، والمخفي، يجد القارئ القول فيها مبسوطاً في أثناء البحث، وهذا مما أضفى على جهده طابع التميز والريادة في بعض صفحاته.

وهو في كل هذا لم يتخذ وحدة لقياس الصوت كما فعل معاصره الداني[٨٢]، بل عوّل على (التناسب بين الأصوات) القائم على المران والمشافهة، واعتماد المؤاخاة بينها، قاعدة له، فيصير بعضها كالمثقال لبعض لتأتي حروف القرآن على "وزن عادل، وترتيب متماثل".

" ومالم يتعمل لارتكاب النهج الأقوم فيها خرجت عن حدها ونادت بالاستكراه على نفسها"[٨٣]. "فليس بين التجويد وتركه إلا رياضة من تدبره بفكه"[٨٤].

فـ(الألف) ينبغي أن يقومها القارئ، ويسلك بها النمط الأوسط" فلا يهمل توفية التمكين حقه، فتصغر، وتصير فتحة، ولا يبالغ في ذلك ويستقصي فتحوّل مدة، بل يوفر عليها من المد ما هو طبعها وصيغتها "[٨٥].

ويلزمه في الواو والياء ما لزم في الألف[٨٦].

ونلحظ التناسب بين الحرف والحركة، وبين الحركة والسكون في قوله: "فلا تشبع الفتحة بحيث تصير ألفاً، ولا الضمة بحيث تخرج واواً، ولا الكسرة بحيث تتحول ياءً، فيكون واضعاً للحرف موضع الحركة.

وكذلك السكون ينبغي ألا تستوفيه إشباعاً.

لا يزعجه وينفره فيصير حركة أو بعضها. بل يجعل الحركات والسكنات وزناً واحداً، وقدراً معلوماً، وكيلاً سواء"[٨٧].

وقد حضّ القارئ على اعتماد هذا النهج في قراءته" هذا مسلك هذا الباب الذي ينبغي أن يركبه، وعماده الذي يجب أن يتطبع به"[٨٨].

ويكون هذا المسلك (التناسب بين الأصوات) أكثر ضرورة في أثناء التركيب إذا توالت عدة حركات أو تشديدات في مثل قوله تعالى: (في بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ...)[٨٩] و (في أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ)[٩٠]، و(يا أَبَتِ إِنِّي رأيتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً)[٩١].

فينبغي على القارئ اعتماد المؤاخاة بينها لأن "بعضه يصير كالمثقال للبعض، فيعلم باجتماعه وتواليه ناقصه من زائده، وتصير نسبة الإفراط فيه الى التفريط فيه نسبة المشدد الى المخفف فيبين خلل ذلك"[٩٢].

وكذلك اذا اجتمع التشديد والمد في مثل قوله تعالى:" (الطامَّة)[٩٣]، (الحاقَّة)[٩٤] "ينبغي أن يوفى كل من المد والتشديد حقه لتحصل الفائدة المرادة منه"[٩٥].

كما تميز القرطبي بإكثاره من الموازنة بين أطوال الأصوات من ذلك قوله: "إن زمان النطق بالحرف الممدود أطول من زمان النطق بغيره، كما أن زمان النطق بالحرف المتحرك أطول من زمان النطق بالحرف الساكن"[٩٦]. وقوله: "إن زمان النطق بالتليين أطول من زمان النطق بالتشديد، لأن المد يبقى مع التليين ويذهب مع التشديد، فلذلك كان زمان التليين أطول"[٩٧].

ومن هذا الفهم العميق للعلاقة التناسبية بين الأصوات يصبح قياس الصوت عند القرطبي حالة نسبية"تختلف في الطول والقصر باختلاف اللغات، ويزيد وينقص بحسب طرق الأداء"[٩٨].

وقال في موضع آخر موضحاً رأيه: "ولا يدخل على ما أصّلناه إشباع من أشبع الحركات والسكنات من أئمة القراءة زيادة على

غيره في الإشباع لأن من أشبع الحركات منهم أشبع الحروف التي أخذت منها أيضاً، فتصير نسبة الحركة المشبعة عنده إلى الحروف المشبعة كنسبة الحركات الى الحروف بغير إشباع عند غيره" [٩٩].

ونزداد إعجاباً بالقرطبي إذا ما علمنا أن المتأخرين من علماء التجويد وعلى الرغم مما اتبعوه من وحدات قياسية متمثلة (بالألف والحركة ونصفها)[١٠٠] يرون أن هذه الوحدات لاقيمة لها مالم يحكم بالمشافهة ويكشفه الحس[١٠١].

والى هذا ذهب علماء الصوت المحدثون، مع مالديهم من أجهزة مكنتهم من قياس الصوت بأجزاء الثانية[١٠٢]، فليس من الضرورة معرفة مقدار الزمن الذي يستغرقه نطق كل صوت بل "إن المران السمعي يكفي عادة في ضبط هذا الطول دون حاجة الى المقاييس الآلية"[١٠٣].

٣. المصطلح الصوتي عند القرطبي :

مما لفت نظر الباحث أن القرطبي كان مقتصدا في استخدام المصطلحات الصوتية التي تتعلق بظاهرتي المد والإدغام اللتين يتعدد فيهما المصطلح ويتشعب.

وفي ما يأتي المصطلحات التي رصدها البحث والتي كانت متداولة في كتب التجويد:

١. إدغام المثلين، إدغام المتقاربين[١٠٤].

٢. التشديد[١٠٥].

٣. إدغام مستكمل التشديد، إدغام غير مستكمل التشديد[١٠٦].

٤. إدغام تام، إدغام غير تام[١٠٧].

٥. إدغام ناقص[١٠٨].

٦. الإدغام المحض[١٠٩].

٧. المد الطبيعي أو المقصور، المد المتكلف[١١٠].

اكتفى القرطبي منها بمصطلح(المد، التشديد، الإدغام) ولا يجد القارئ، لما تفرع منها من تسميات مكاناً في درسه الصوتي.

ويرى الباحث أن هذا الموقف لم يكن مصادفة محضة، بل يعبر عن موقف تربوي صادر عن عالم- استوعب ثقافة عصره وقضى معظم حياته مقرئاً ومعلماً يشعر بوطأة تباين المصطلح وكثرته على القارئ، المتعلم إضافة الى عدم جدواها. فالواجب عنده قبل هذا كله معرفة النطق بالحرف، وصفة التلفظ به.

كما أنه اكتفى بمصطلح(الحرف) و(الحركة) ولم يستخدم أياً من المصطلحات الأخرى الدالة عليهما.

ولا يريد الباحث أن يتعدى لاستخدام المصطلح، وإنما يضم صوته الى من ينادي بتحجيمه، والدقة في اختياره وتحقيق وحدة المصطلح للمفهوم الواحد.

إن استقراء الواقع يشهد للقرطبي بصحة موقفه، وصواب نظرته.

نقل لنا محمد المرعشي(١١٥٠هـ) إن مصطلح المد، وصلت أنواعه عند بعضهم الى تسعة وعشرين نوعاً، وقد علّق على ذلك بقوله: "الاشتغال بمعرفة تلك الأسامي قليل الجدوى"[١١١].

ولم يكن حال (الإدغام) بأفضل من المد فالقارئ يتوه في خضم مصطلحاته التي يبدو أن لا حد لها فهناك(المماثلة أو التماثل، المماثلة الكلية، التشابه الكلي، المماثلة الجزئية، التشابه الجزئي، التأثر الرجعي(التخلفي)، التاثر التقدمي(الإتباعي) ، المقبل ، المدبر، المتبادل)[١١٢].

مكانته العلمية:

مع ندرة ما كتب عن القرطبي، فإن ما وصف به من ألفاظ، تدل على علوّ كعبه، وطول قناته، ومكانته المتميزة بين علماء عصره، لاسيما في علم القراءات والتجويد، إذ انصرف اليها بكليته تدريساً وتأليفاً. تدل على ذلك قائمة مؤلفاته.

فقد كان من "جلة المقرئين، ومن الخطباء الحفاظ المجودين، وكانت الرحلة إليه في وقته"[١١٣].

وهو "مؤلف المفتاح في القراءات، ومقرئ أهل قرطبة"[١١٤].

"كان عجبا في تحرير هذا الشأن، ومعرفة فنونه" بهذا وصفه الذهبي[١١٥].

ووصفه ابن الجزري بأجمل الكلمات فهو"محرر، استاذ،

كامل، متقن، كبير، رحال"[١١٦].

وقد عرفنا – فيما سبق – أنه كان إماما وخطيباً بالمسجد الجامع بقرطبة، وهو منصب لايحظى به إلا الصفوة من العلماء، فقد كان هذا المسجد جامعة حقيقية تشّد إليها الرحال من أقطار الأرض، فكان شيوخه من جلّة الشيوخ، وأوفرهم علماً، وأحسنهم سمتاً[١١٧].

وفي الختام أرجو أن تكون صفحات هذا البحث قد أضاءت جانباً من شخصية هذا العالم الجليل، آملاً أن يحظى بعناية الباحثين.

الهوامش

(١) لتفصيلات أكثر، ينظر: الحلة السيراء: ٢: ٣٠ وما بعدها.

– المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٤٠–٩٣.

–البيان المغرب: الجزء الثالث، أفرده مؤلفه للحديث عن دول الطوائف ومافيها من أحداث.

– دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي: قدّم تفصيلا لهذه الحقبة مع التعريف بكل دويلة أو إمارة.

(٢) ظهر الإسلام: ٣: ٤٢، وينظر تأريخ آداب العرب ٣: ٢٨٠.

(٣) ينظر: الحركة اللغوية في الأندلس: ٢٥٧–٢٦٠، النثر الأندلسي في عصر الطوائف: ٤٠–٥٨.

(٤) ابن حزم حياته وعصره: ١٠٢، وينظر: النثر الأندلسي: ٤٧.

(٥) مشكل إعراب القرآن: ١: ١٧ وقد أعد د. حاتم الضامن قائمة بمؤلفاته بلغت مئة وتسعة كتب وينظر: إنباه الرواة: ٣: ٣١٥.

(٦) ضم (فهرست تصانيف الداني) مئة وتسعة عشر تأليفاً، نشره محققا د. غانم قدوري حمد. ينظر: التحديد في الإتقان والتجويد: ٢٤.

(٧) مقدمة ابن خلدون: ٤٣٧.

(٨) ينظر: ابن حزم، حياته وعصره: ١٦٧.

(٩) الديباج المذهب: ٢: ٣٦٧.

(١٠) ينظر: النثر الأندلسي: ٥٨–٥٩ وقد أفدت منه كثيراً في تقديم هذا الموجز.

(١١) ينظر: الصلة ٢: ٣٨١، معرفة القراء الكبار ١: ٣٦٦، غاية النهاية في طبقات القراء ١: ٤٨٢، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب: ٣: ٣٩٣، هدية العارفين: ٥: ٦٣٧، الأعلام: ٤: ١٨٥، معجم المؤلفين ٢٢٩: ٦.

(١٢) ينظر: الذيل والتكملة، السفر الخامس: ٩٦.

(١٣) الصلة ٢: ٣٨١.

(١٤) الصلة ٢: ٣٨١.

(١٥) ينظر الصلة ٢: ٣٨١.

(١٦) ينظر معجم البلدان: ١: ١٧٤، مراصد الاطلاع ١: ٧٠.

(١٧) انظر ترجمته: ص١٣.

(١٨) الحركة اللغوية في الأندلس: ٥٤، وينظر الدراسات اللغوية في الأندلس: ١٤–١٧.

(١٩) مقدمة ابن خلدون: ٥٤١، وينظر أدب الرحلات: ٨٩.

(٢٠) ينظر: نفح الطيب، م٢، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٤٤.

(٢١) ينظر: الأندلسيون في بلاد الشام(رسالة ماجستير)، جامعة دمشق. تحتفظ المكتبة المركزية/ جامعة بغداد بنسخة منها.

(٢٢) ينظر النص: ص٩ من هذا البحث علماً أنّ معاصره الداني قد روى ما يفيد عن رحلته الى بلاد المشرق. ينظر معجم الأدباء ١٢: ١٢٤، التحديد في الإتقان والتجويد(مقدمة المحقق: ١٠. ولمزيد من التفصيل عن أشهر الرحلات ينظر أدب الرحلات: ١٣–٤٣.

(٢٣) الموضح في التجويد (مقدمة المحقق): ١١.

(٢٤) ينظر الغنية: ١٤٧، الصلة ١: ٣٨١.

(٢٥) غاية النهاية: ١: ٤٨٢، نفح الطيب ٣: ٣٩٣.

(٢٦) ينظر الصلة ١: ٣٨١، هدية العارفين ٥: ٦٣٧.

(٢٧) ينظر الذيل والتكملة– السفر الخامس: ٩٦، معرفة القراء الكبار ١: ٣٦٦.

(٢٨) غاية النهاية ١: ٤٨٢.

(٢٩) ينظر: نفح الطيب ٣: ٣٩٣، الأعلام ٤: ١٨٥، معجم المؤلفين ٦: ٢٢٩، وقد اضطرب د. غانم قدوري حمد بين التاريخين في الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، فقد اعتمد سنة ٤٦٢هـ ونراه في (الموضح في التجويد) قد اختار ٤٦١هـ.

(٣٠) أفدت كثيراً من القائمة التي أعدها محقق كتاب (الموضح في التجويد) فله فضل السبق.

(٣١) ينظر: ص٢١١، ٢١٣، ٢١٥. (٣٢) ينظر ص٥٥.

(٣٣) ينظر: الإقناع ١/١٢، معجم الأدباء ١٢: ٢٣١، الإعلام ٤: ٢٥.

(٣٤) ينظر: الإقناع ١/٨٨، الصلة ٢/٣٨١، غاية النهاية ١/٥٧٢.

(٣٥) ينظر: الصلة ٢/٣٨١، معرفة القراء ١/٣٣٦.

(٣٦) ينظر: الإقناع ١/ ٦٩ ، غاية النهاية ١/ ٢٣٠.

(٣٧) ينظر: الاقناع ١/ ٦٩و٧٥و١٤٣. غاية النهاية ١/ ١٣٦ .

(٣٨) ينظر:الإقناع ١/ ٨٢، ١٠٨ .، غاية النهاية ١/ ٤٨٢، ٢/ ١٣٢ .

(٣٩) ينظر: الإقناع ١/ ٦٥و٩٦ ،الصلة٢/ ٣٨١، غاية النهاية ١/ ٢٢١ .

(٤٠) ينظر: الاقناع ١/ ٦٣، الصلة٢/ ٣٨١، غاية النهاية ١/ ٥٦.

(٤١) ينظر: الإقناع ١/ ١٧٧، الصلة ١/ ١٣٨ .

(٤٢)معرفة القراء ١/ ٣٣٦، غاية النهاية ١/ ٤٨٢ .

(٤٣) ينظر : الصلة٢/ ٦٥٩، غاية النهاية ٢/ ٣٤٥.

(٤٤) الإقناع ١/ ٦٣و ٦٥، الصلة ١/ ١٧٤، معرفة القراء١/ ٣٣٦ .

(٤٥) الإقناع ١/ ٧٥و ٩٤، غاية النهاية١/ ٤٨٢ .

(٤٦) الإقناع ١/ ٥١٨، ٥٧٦، الصلة ١/ ٧٧ .

(٤٧) ينظر المفتاح ١٩ظ، ٢٤ظ .

(٤٨) ينظر م.ن:٢و، ٢ظ، ٢٤ظ، ٣١و .

(٤٩) الإقناع:١/ ٤١٥.

(٥٠) يحتفظ د. غانم قدوري بنسخة مصورة منه

(٥١) ينظر١: ١٥ .

(٥٢) ينظر: ص٥٥٠ .

(٥٣) ينظر إيضاح المكنون ٤/ ٥٢٧ .

(٥٤) ينظر معجم مصنفات القرآن الكريم ٤: ٣٠٠٦ .

(٥٥) المفتاح : ٢و .

(٥٦) الغنية: ١٠٥.

(٥٧) حققه د. غانم قدوري الحمد عام ١٩٩٠.

(٥٨) ينظر غاية النهاية: ١: ٢٢٠.

(٥٩) معجم المؤلفين٦: ٢٢٩ .

(٦٠) كشف الظنون ٢: ١٧٧٠.

(٦١) الرعاية: ١٤٣ وينظر الموضح: ٧١ .

(٦٢) غنية الطالبين ومنية الراغبين(خط): ١٠ .

(٦٣) الموضح:١٧٧، ١٨٨ .

(٦٤) النشر في القراءات العشر ١: ٢٠١ وينظر لطائف الإشارات١: ٢٠٤.

(٦٥) الموضح: ١١٢ .

(٦٦)الموضح :١١٥.

(٦٧)م. ن: ١٤٨.

(٦٨) لمزيد من التفصيل ينظر: الرعاية:٢٠٧، الدراسات الصوتية:٤٠٠.

(٦٩) الموضح:١٥٠.

(٧٠) م. ن: والصفحة نفسها .

(٧١) م. ن: ١٥٦.

(٧٢) م. ن: ١٦٢ .

(٧٣) الموضح: ١٧٧.

(٧٤) م. ن: ٢٠٣.

(٧٥) م. ن: ٢٠٤.

(٧٦) الأصوات اللغوية: ١٠٤، وينظر جهد المقل(مقدمة المحقق): ٦٥.

(٧٧) ينظر: القصيدة الخاقانية في القراءة وحسن الأداء: مجلة المورد :١١٨ .

(٧٨) بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء: مجلة معهد المخطوطات العربية: ٣٤.

(٧٩) جمال القراء وكمال الإقراء:٢: ٥٤٤.

(٨٠) يقال: أفرط في الشيء إذا تجاوز القصد، وفرّط في الشيء : إذا قصّر فيه. ينظر : الألفاظ الكتابية: ١٤٠.

(٨١) نهاية القول المفيد في علم التجويد: ٢١.

(٨٢) مقدار المد الطبيعي عنده ألف إن كان ألفا، ومقدار ياء إن كان ياء، و واو إن كان واوا، وتمد هذه الأحـــرف الثلاثة–في المد المتكلف– ضعفي مدّهن في الضرب الأول ينظر التحديد: ١٠٠.

(٨٣) الموضح :٢١٦.

(٨٤) التحديد: ٧٠.

(٨٥) الموضح: ١٠٠.

(٨٦) ينظر: م.ن: ١٢١.

(٨٧) م. ن: ١٩١.

(٨٨) م. ن والصفحة نفسها .

(٨٩) سورة النور: ٤٠.

(٩٠) هود :٤٨ .

(٩١) يوسف: ٤ .

(٩٢) الموضح: ١٥٣ وينظر الرعاية: ٢٥١، التحديد:١٣٩.

(٩٣) سورة النازعات: ٣٤.

(٩٤) الحاقة : ١.

(٩٥) الموضح: ١٤٣.

(٩٦) م. ن: ١٢٩ .

(٩٧) م.ن:١٥٧، وينظر : الدراسات الصوتية : ٤٥١.

(٩٨) الموضح في التجويد: ١٣٥.

(٩٩) م. ن: ١٩٣ .

(١٠٠) لتفصيلات أكثر ينظر: الدراسات الصوتية: ٣٥١.

(١٠) ينظر: النشر ١: ٣٢٦، المنح الفكرية شرح متن الجزرية: ٥٠-٥٣ .

(١٠٢) لتفصيلات أكثر ينظر: الكلام، إنتاجه وتحليله: ٢٢٩.

(١٠٣) الأصوات اللغوية: ١٠٤.

(١٠٤) مما شاع عند علماء العربية وعلماء التجويد.

(١٠٥) استخدمه مكي والداني مرادفا لـ(الإدغام) ينظر الرعاية باب المشددات، التحديد٩٥، ١٣٧.

(١٠٦) من مصطلحات مكي، للدلالة على الإدغام التام وغير التام. ينظر الرعاية: باب إحكام النون الساكنة، التمهيد: ١٤٤ باب الطاء.

(١٠٧) ينظر التحديد: ١٠١.

(١٠٨) استخدمه مكي مرة واحدة، ينظر: الرعاية: ٢٥٧ .

(١٠٩) استخدمه السعيدي للدلالة على الإدغام التام، ينظر: التنبيه على اللحن: ٢٦٣.

(١١٠) استخدمها الداني، ينظر: التحديد: ١٠٠.

(١١١) جهد المقل: ٦٢.

(١١٢) ينظر: التطور النحوي: ٢٨-٢٩، في البحث الصوتي عند العرب: ٧١، الإدغام في العربية(رسالة ماجستير): ١٥-١٧، وقد أعدت الباحثة جدولاً بهذه المصطلحات عند القدماء والمحدثين .

(١١٣) الصلة٢: ٣٨١.

(١١٤) معرفة القراء الكبار ١: ٣٩٦.

(١١٥) غاية النهاية: ١: ٤٨٢. وينظر نفح الطيب٣: ٣٩٣.

(١١٦) م. ن والصفحة نفسها .

(١١٧) لمزيد من التفصيل عن هذا المسجد الجامع، وعظم قدره عند أهالي قرطبة، وما نسجوا حوله من حكايات. ينظر: المعجب في تلخيص اخبار المغرب: ٣٧٢، المساجد: ١٩٣- ١٩٤ .

المصادر والمراجع

١. الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس ط٣ ١٩٦١.

٢. ابن حزم الأندلسي، حياته وعصره، الشيخ محمد ابو زهرة، ط٢، مطبعة أحمد مخيمر .

٣. أزهار الرياض في أخبار عياض: أبو العباس أحمد بن محمد المقري، تحقيق مصطفى السقا١٩٤٢.

٤. الأعلام، خير الدين الزركلي ط٤، دار العلم للملايين١٩٧٦.

٥. الإقناع في القراءات السبع: ابن الباذش أحمد ابن علي، تحقيق عبد المجيد قطامش، ط١.

٦. إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين القفطي، تح: محمد ابو الفضل ابراهيم، ١٩٥٥.

٧. البيان المغرب، ابن عذاري المراكشي، ط١، بيروت، ١٩٦٧.

٨. تأريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي ط٢، بيروت١٩٧٤.

٩. التحديد في الإتقان والتجويد: ابو عمرو عثمان بن سعيد الداني، تح: د. غانم قدوري، ط١ ١٩٨٨.

١٠. تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار احياء التراث العربي، بيروت .

١١. جمال القراء وكمال الإقراء: علم الدين السخاوي(علي بن محمد) تح: د. علي البواب، ط١، ١٩٨٧.

١٢. جهد المقل: محمدبن أبي بكر المرعشي، تح: سالم قدوري حمد(رسالة دكتوراة بالرونيو) كلية الآداب١٩٩٢.

١٣. الحلة السيراء، ابن الأبار أبو عبد الله محمد القضاعي. تح: د. حسين مؤنس ط١ ١٩٦٢.

١٤. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: د. غانم قدوري حمد، مطبعة الخلود، ١٩٨٦.

١٥. الدراسات اللغوية في الأندلس: رضا عبد الجليل الطيار، دار الرشيد، ١٩٨٠.

١٦. دول الطوائف منذ قيامها حتى نهاية الفتح المرابطي: محمد عبد الله عنان، ط١، ١٩٦٠.

١٧. الديباج المذهب في معركة أعيان المذهب: ابن فرحون المالكي، تح: محمد ابو النور، دار التراث.

١٨. الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: لأبي محمد مكي القيسي، تح: د. أحمد فرحان، ط٢.

١٩. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي. دار الكتب،

بيروت.
٢٠. الصلة: أبو القاسم خلف بن عبد الملك، دار المصرية،١٩٦٦.
٢١. العبر في خبر من غبر، الذهبي، تح:هاجر عمر بسيوني، دار الكتب العلمية.
٢٢. غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، مطبعة الخانجي،١٩٣٢.
٢٣. الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تح:ماهر حداد ط١، ١٩٨٢.
٢٤. غنية الطالبين ومنية الراغبين(مخطوط): محمد بن القاسم البصري، مكتبة المخطوطات للآثار(١٢٩٧٥).
٢٥. فهرس ابن عطية: عبد الحق بن عطية، تح: محمد أبو الأجفان ط٢، ١٩٨٣.
٢٦. فهرست ابن خير الأشبيلي، ط٢، ١٩٦٣.
٢٧. فهرس المخطوطات المصورة: فؤاد السيد، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٥٤.
٢٨. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار المستشرق، بيروت.
٢٩. معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٠. معجم مصنفات القرآن الكريم، د. علي شراخ ط١، ١٩٨٣.
٣١. معرفة القراء الكبار، الذهبي، تح: محمد سعيد جاد الحق، ط١، ١٩٦٩.
٣٢. المفتاح في اختلاف القرأة السبعة(مخطوط) عبد الوهاب بن محمد القرطبي.
٣٣. الموضح في التجويد: عبد الوهاب بن محمد القرطبي، تح: د. غانم قدوري، ١٩٩٠.
٣٤. النشر في القراءات العشر: ابن الجزري تصحيح محمد الضباع، دار الكتب العلمية.
٣٥. نهاية القول المفيد في علم التجويد: الشيخ محمد مكي نصر، مطبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٤٩هـ.

المجلات:

١. مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد٣١/ ١٩٨٧ رسالة بيان العيوب لابن البناء البغدادي تحقيق د. غانم قدوري حمد.
٢. مجلة المورد المجلد ١٤ العدد الأول ١٩٨٥. القصيدة الخاقانية في القراءة وحسن الأداء، تح: د. علي البواب.